❁ التسلل الثقافي في ظل العولمة وإستراتيجية تعبئة طاقات المواجهة

أ.د/ محمد علي التسخيري

الأمين العام للمجمع العالمي

للتقريب بين المذاهب الإسلامية - إيران-

مقدمة:

قبل كل شيء ينبغي أن أذكر بأن للمرء أن يرفض وجود نفوذ مؤثر للثقافة الغربية على عالمنا الإسلامي، فبالرغم مما نشاهده من تضخيم للتأثير الغربي فإن الواقع يبقى مخالفا لذلك، واقع وجود العقيدة على اختلاف مستوياتها في النفوس، وواقع التزام جماهيرنا الخلق الإسلامي الأصيل، وواقع رفض مستوردات العالم الغربي بشتى أنواعها (الشرقي والغربي). وهنا أذكر بأننا نعبّر بالثقافة الغربية عن كل أجنحه الفكر غير المستند إلى الله والى دين الفطرة (الإسلام)؟ فإن تلك الأجنحة تجمعها صفة اللاواقعية واللافطرية، وبالتالي فهي مبتلاة بالتعارض مع الطبيعة الواقعية للإنسان.

وينبغي أن نذكر بأن الثقافة طهارة، والتطهير لا يتم إلاّ مما علق بالوجود الإنساني من أوساخ عقائدية وعاطفية وعملية، وحينئذ فإن الفكر والسلوك الغربي المصدّر إلينا لا يملك أن يطلق عليه اسم ثقافة، إلاّ أن

يعتذر عن ذلك فيقال:إنه مصطلح ولامشاحة في الاصطلاح، وإلاّ كان علينا أن نحذف من قاموسنا لفظ (الحضارة الغربية) و(التمدن الغربي) و(الفلسفة الغربية) باعتبار ابتعاد الغرب عن معاني الحضارة والتمدن والفلسفة الأصيلة.

وبعد هذا، عليّ أن أذكر أن أهم العوامل التي ساهمت في إيجاد سيطرة للثقافة الغربية في عالمنا الإسلامي عاملان متكاملان لتحقيق النتيجة، هما:

1 ـ الاستكبار العالمي (العامل الأصلي).

2 ـ الفراغ في الأمة (العامل المساعد).

والحقيقة هي أن الاستكبار العالمي يحاول الامتداد بالفكر الغربي في فراغنا القائم عبر غطاء العولمة.

أما الحديث عن الفراغ القائم فهو حديث ذو شجون، وله تشعب تصعب معه الإحاطة بجوانبه، فهناك الفراغ في التصور عن الإسلام،والحياة،والتاريخ، نتيجة ابتعادنا عن تصورات القرآن وأساليبه في تعميم هذه التصورات وتعميقها.

إن التصورات الإسلامية تتسم بالواقعية المنسجمة مع ما أودع الله تعالى في الفطرة من قدرات إدراكية نظرية وعملية وميول طبيعية نحو ما يحفظ للإنسان مسيرته ويمنحها معناها. واهم هذه الميول ميل الإنسان للارتباط بالمطلق جل وعلا، والتدين له، واستمداد العون الحياتي منه. فهل احتفظت امتنا، وهل احتفظت موروثاتنا العقائدية بكل ذلك الصفاء وهذا العمق؟ كلا، فقد مرت الأمة بلحظات سبات فكري ـ إلا من بعض الومضات

المنيرة ـ وكان هذا السبات هو الأرضية الطبيعية لتسلل الأفكار الغربية المزوقة إلينا.

يذكر الأستاذ الشهيد آية الله مرتضى المطهري في كتابه (الدوافع نحو المادية) بعض النماذج من الانحرافات العقائدية التي فسحت المجال لذلك التسلل الغريب. فهناك الفراغ في الخلق والإحساسات، والتفاعل الوجداني إلى الحد الذي افقد الكثير من قطاعات الأمة إحساسها بمدى الجريمة التي ترتكب بحقها من خلال الدعوة إلى تطبيق الأحكام الوضعية ومن خلال تشكيل عروش العمالة الغربية، وبالتالي بيع ثروات الأمة المعنوية والمادية للأجنبي.

إن الحالة بلغت بأمتنا في عصور الاستعمار إلى الحد الذي أعلنت فيه المهادنة مع الكفر عملا خلقيا رصينا منسجما مع الرضا بالقدر الإلهي، وذلك من قبل بعض المذاهب المنحرفة (كالقاديانية والبهائية) والى الحد الذي راح فيه الولاء للكفر يعد عملا تقدميا. وهذا لعمري لا يعبر إلا عن تمزق الشخصية الإسلامية في الفرد والمجتمع، وضياع مقاييس الخلق الإسلامي المتماسك.

واذكر بهذا الصدد أن سبط رسول الله، الحسين بن علي(ع) - وهو في طريقه لإشعال نهضته والمطالبة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- سأل الفرزدق الشاعر عن حالة أهل الكوفة، فأجابه الفرزدق: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك». وغاية التمزق في الشخصية أن يتجه القلب الصافي إلى جهة وتتجه اليد بالسيف لتقضي على تلك الجهة بالذات، وفي مثل هذه الحالة يستولي الطاغوت وتشيع الأفكار الغريبة لأنها لا تلقى أمامها أية مقاومة تذكر.

فإذا انتقلنا إلى الفراغ الاجتماعي، واعني فراغ الساحة السياسية من قادة مسلمين واعين يحاولون القيام بعملية التثقيف الجماهيري سياسيا، ويعملون على لملمة كل الخيوط وتوجيه كل الطاقات الفردية نحو تحقيق الأهداف السامية، نعم، إذا انتقلنا إلى هذا الفراغ رأينا ما يؤلم القلب ويبعث على المضض؛ فلقد تركت الساحة لذوي الأطماع الشخصية، وذوي القدرات الموهومة (لان القدرة تستمد دائما من الآخرين وإلا فما كان فرعون حين حشر ونادى فقال أنا ربكم الأعلى إلا قوياً بهؤلاء الذين حشدوا له أنفسهم ومنحوه، كذبا، قوتهم فسخرهم بعد أن استخفهم، وهذا هو ديدن الطواغيت) فراح هؤلاء يوجهون مسيرة الأمة حسب أهوائهم، وما أكثر من يبيعون أمتهم ودينهم للأجنبي في سبيل الحفاظ على عروشهم المهزوزة، الأمر يفسح المجال تماماً للتغلغل الغربي بكل مظاهره الفكرية والأخلاقية والتشريعية.

وأما الحديث عن الاستكبار العالمي وأهدافه وأساليبه في سبيل ذلك فيكاد يكون مكررا، إلا أن من الضروري التذكير به دائما، تماما كما أن من الضروري أن يتذكر الإنسان المسلم أحابيل الشيطان «انه يراكم هو وقبيلة من حيث لا ترونهم» ويستعيذ بالله تعالى منه ويرجمه عمليا على طول الخط.

إن الاستكبار يعني التمرد على الله تعالى، والتعقيد الوهمي للوجود الإنساني، وصياغة مطلق وهمي منه، بدل وصله بالمطلق الحقيقي، واللجوء إليه، والاستعانة به تعالى. ومن هنا فنحن نركز على هذه اللفظة كبديل للفظ (الاستعمار) الموحي ولو شكليا إلى عملية (العمران) وما هو إلا الخراب والويل.

والاستكبار هذا يستهدف إشباع حس السيطرة العارم بشتى الوسائل الشيطانية. فإذا انتقلنا للمصداق المعادي للأمة الإسلامية وجدنا الاستكبار المادي المنحرف عن الفطرة قد أعد مخططاً رهيباً تحت غطاء العولمة لتوسعة هوة الفراغ العقائدي، والعاطفي، والعملي أولا، ومن ثم الامتداد والاحتلال اللئيم الشامل لكل الجوانب.

ولنا هنا أن نشير بشكل مفهرس للأمور التالية كأجزاء لذلك المخطط الرهيب:

أ ـ العمل على قطع صلة الأمة الإسلامية بتاريخها المشرق المشرف والمشترك فيما بين شعوبها، وذلك بهدف تمزيقها أولا، وبإشاعة تواريخ محلية خاصة، وإشاعة البغضاء والشحناء بين أجزائها ثانيا، وربطها بتاريخ ما قبل الإسلام ثالثا، مما يحقق له أغراضه الخبيثة. ومن هنا نجد هذا التمجيد الخبيث (للفرعونية، والفينيقية، والبابلية، والشاهنشاهية و...)من قبل العناصر العميلة للاستكبار العالمي.

ب ـ قطع صلة الأمة بلغة القرآن، وإشاعة اللغات المحلية والعامية ومحاربة عملية التعريف، وبالتالي شاعت اللغات الغربية لا كلغات عالمية نافعة، بل كبديل للغة العربية الأصيلة. ولا باس هنا بالتذكير بحملات الشاه في مجال ما كان يسميه بتطهير الفارسية من العربية، وحملات أتاتورك ضد اللغة العربية، بل ضد الحرف العربي أيضا. و الأمثلة كثيرة في هذا المجال.

ج ـ إشاعة الروح القومية الضيقة، الأمر الذي يحقق له سببا آخر للبغضاء، وبعدا عن مبادئ الشريعة الإسلامية وأخلاقيتها ومقاييسها، وتمزيقاً جديداً لشخصية الأمة.

د ـ العمل على تضييع معالم الشخصية الإسلامية، وبالتالي تضيع الهوية الإسلامية بين المتزمتين بحماقة والمتحللين بصفاقة.

هـ - تمزيق العالم الإسلامي إلى وحدات سياسية قد يصل الأمر في بعضها إلى مساحة صغيرة تحوي جماعة صغيرة، ولكنها تملك دستورها وعلمها وشعورها بما يسمى، كذبا، بالوطنية، وما وطن المسلمين إلا دار الإسلام الواحدة لا غير، وما دولتهم إلا الدولة الإسلامية المنفذة لأحكام الله على جميع المسلمين بمستوى واحد، وما ذخائرهم الأرضية إلا ملك لكل أفرادهم. ولكن هذه المفاهيم تذوب كلها عندما تقوم هذه القيود، التي أسموها حدودا دولية معترفا بها، وما هي إلا تحديدات وهمية وتمزيقات لجسم واحد.

و ـ إفقاد شخصيتها الاقتصادية المستقلة، وربطها بالعجلة الاقتصادية الكبرى (العولمة)، وبالتالي الاستفادة من هذه التبعية لأغراض ثقافية وسياسية والتهويل من علو الفكر الغربي المتحضر، ومحاولة إيجاد الرابطة الذهنية بين الصلاح الفكري الحضاري والتقدم العلمي التكنولوجي باعتبار إن كلا منهما يواكب الآخر، ولما كان الثاني أمرا مرغوبا بشكل لا غبار عليه، فان الأول يجب أن يتقبل بكل رحابة صدر!!

ز ـ القيام بمخطط واسع لغرس التصورات الغربية في أذهان أبناء العالم الإسلامي من خلال مناهج التربية المحلية وبالبعثات الطلابية إلى الجماعات الغربية، وإعداد الكادر العميل فكريا، ثم العمل على زرعه في الجامعات المحلية ليقوم بدور السلك الموصل لتلك الأفكار إلى الجيل الناشئ، وما اشد الضربة التي وجهت للثقافة الإسلامية الأصيلة من هذا

المنفذ الخطير، وان ما نشاهده أحيانا من الفكر المركب المزيج لهو حصيلة هذه العملية الخطيرة.

ح ـ الاستفادة من العولمة العسكرية والاقتصادية والإعلامية وغيرها لدفع عملية التسلل الثقافي إلى الإمام.

ط ـ تنفيذ خطة واسعة لضرب الأخلاقية الإسلامية، وتفريق الشخصية الإسلامية المتماسكة، وتحطيم العلائق العائلية السليمة، وتحريك الغرائز، وذلك سواء على الصعيد النظر بإشاعة أفكار هدامة أخلاقيا كالنسبية في الأخلاق، والتشكيك في حرمة الخمر والربا والمخدرات، أو على المستوى العملي بإشاعة الإباحية بشتى الوسائل، كالسينما، والمسرح والإذاعة والتلفزة، والفن والفيديو، والرياضة، والنوادي الخليعة، وغير ذلك.

هذا، وإذا شئنا تتبع كل الأساليب التي استخدمها الاستكبار فان ذلك يتطلب منا الكثير من المجال، ولذا فنحن نقتصر على ما تقدم، مرددين من جديد انه لولا الفراغ الذي ابتلينا به لما استطاع العدو أن يتسلل، ذلك أن لنا من شريعتنا أقوى الحصون العقائدية والأخلاقية والعملية الأخرى لو كنا أقمنا بيننا أحكام القرآن الكريم.

- حجم التغلغل الثقافي في العالم الإسلامي:

إن التغلغل الفكري والسلوكي الغربي في عالمنا الإسلامي اتخذ أشكالا متفاوتة، كالشكل الاقتصادي والإعلامي والسياسي والعسكري واتبع أساليب كثيرة ذكرنا بعضها قبل قليل وبقي منها الكثير.

ولسنا نزعم أن التغلغل الثقافي كان هو المقصود بالذات، ذلك أن رسالة ثقافية إنسانية، وإنما

هو ينطلق، كما أسلفنا، من حس استكباره، وحب تسلطه على الشعوب، وبالتالي امتصاص خيراتها، وآية هذا المدعى ما نجده من آثار سيئة جدا لتلك الانطلاقة الغربية نحو العالم المستضعف، وخصوصا نحو العالم الإسلامي، هذه الانطلاقة التي تمت في إطار من الإيمان بالمادية في الواقع (وان غطي الاتجاه المادي بستار مسيحي محرف) وكذلك في إطار من إطلاق الحرية للنوازع الفردية الجامحة لتعمل ما تشاء باسم الحرية وسلطان الإرادة الحرة. فالمقصود هو السيطرة الاقتصادية وغيرها، والتغلغل الثقافي يضمن بقاءها والتدخل السياسي والاحتلال العسكري يدعم كل ذلك، بل يمكن القول: إن الهدف هو أمانة الشخصية الإسلامية المقاومة وضمان الطاقة الرخيصة ومناطق النفوذ. وعلى أي حال، فقد اتخذ التغلغل الثقافي من التبعية الاقتصادية وسيلة لفرض النفوذ إلى الأعماق.. وما أن مرت فترة على الهجوم الاقتصادي الكاسح حتى وجد عالمنا الإسلامي نفسه مقيدا بقيود التبعية الاقتصادية، فتشكيلاته الاقتصادية غربية، ونقده متوقف على السلة النقدية الغربية، وأسواقه مسرح للبضاعة الغربية، ومواطن الخبرة فيه بيد أعدائه. ومع التبعية الاقتصادية تأتي التبعية الثقافية في الجوهر والشكل، رويداً رويداً، لتضمن بقاء الجانب الاقتصادي، لأنه هو المقصود الأول لديهم. وكانت وسائل الإعلام الغربية العامل التنفيذي الرئيس في هذه الخطة، فكل منابع الأخبار في أيدي الغرب، يصوغها بما يشاء وكيف يشاء، يستر خبراً ويضخّم آخر. ولا أدل على أساليبه الملتوية هذه موقفه الحاقد تجاه الثورة الإسلامية وإحداثها، وتجاه الصحوة الإسلامية عموما. وقد ساعده في ذلك عملاء متسللون إلى أجهزة إعلامنا، لا همّ لهم إلا اجترار الأفكار التي يوصلها الأسياد إليهم.

أما على الصعيد السياسي فقد كانت عملية زرع الجمعيات الثقافية ظاهراً، والدينية أحياناً، كالماسونية، ونوادي الروتاري، والبهائية والقاديانية، من اكبر العوامل على ملء الفراغ السياسي القاتل في عالمنا، من خلال تكبير شخصيات العملاء وتمليكهم أزمة هذه الأمة مع الاحتفاظ بعناصر بديلة يضعها الاستكبار العالمي في كمه الطويل، منتظرا بكل منهم يومه الموعود. وهكذا عدنا نشهد امتنا تمزق وتستغل أسوأ استغلال، وتنفذ ضدها كل المؤامرات، وتزرع في قلبها إسرائيل المجرمة، ثم لا تجد من يدافع عن كل هذا الشرف المضاع إلا أقزاما متطاولين لا حول لهم ولا قوة إلا الصراخ والزعيق المخدر للجماهير والممتص لغضبها.

وخلاصة الأمر، إن الهدف الأول والأخير للاستكبار كان هو التسلط المبتز للوجود الاقتصادي، أما التغلغل الثقافي فكان الضامن لبقاء هذا التسلط، ومحو أية مقاومة في وجهه.

ومع هذا الحال فهل يمكننا أن نطرح فكرة التسامح مع من يتسلل إلى عقولنا ويحاول أن يسرق منابعنا ويستهدف شخصيتنا بل وجودنا المقاوم كله؟ إن الدعوة للحوار أحيانا تعبر عن أسلوب مخادع وإلا فديننا دين حوار منطقي سليم، وموضوعية تامة وكل هذا لا ينسجم مع جو التحايل والظلم والاتهامات المعلنة للإسلام بأنه مكمن الرجعية والإرهاب والتجاوز على حقوق الإنسان.

- إستراتيجية تعبئة الطاقات للمواجهة:

بعد ملاحظة الحقائق الماضية نستطيع بكل وضوح أن ندرك أبعاد إستراتيجية تعبئة الطاقات للمواجهة على عنصري المضمون والوسيلة.

أما من حيث المضمون، فيجب تعميق الفكر الإسلامي الأصيل في النفوس، وتركيز العواطف المنسجمة مع القواعد الفكرية، وإيجاد الأجواء العملية الملائمة للرشد الإنساني السوي باتجاه الأهداف الفكرية.

وبتعبير آخر، يجب تحقيق التلاؤم الكامل بين الجانب الفكري والجانب العاطفي في إطار بيئة منسجمة أيضا معها وبذلك نضمن الانعتاق الحقيقي من سيطرة الثقافة الأجنبية، والاتجاه المستقل نحو الأهداف العليا.

وتعميق الفكر يتم عبر تجنيد علماء المسلمين أنفسهم لفهم الإسلام جيدا أولا، ومعرفة النظريات الإسلامية العامة للحياة الإنسانية – ثانياً – دون الاقتصار على معرفة الأحكام الفردية في كل مجال فحسب، ذلك أن معرفة الخط الفكري الإسلامي العام تساعدنا على معرفة أفضل لتلك الأحكام نفسها، كما تسهل لنا عملية المقارنة مع المبادئ الأخرى وتجلية جوانب العظمة في الإسلام، وبالتالي تمهد بكل قوة لعملية تطبيق الإسلام على كل جوانب الحياة.

ونحبذ أن تكون عملية المعرفة والاستنباط جماعية من جهة، كما نصر على أن تكون مستقلة عن تأثير السلطات الحاكمة والعواطف والبيئات المختلفة من جهة أخرى، لتتم عملية المعرفة بشكل موضوعي مبرهن جامع واقعي عملي، ومن ثم تبدأ عملية التثقيف والتعميق الفكري بين جماهيرنا المسلمة بكل قوة وأحكام وبشتى الأساليب.

أما بالنسبة للعواطف، فان رسالتنا كبيرة ومهمة، ذلك إن علينا أن نتبع نظاما دقيقا بهدف إثارة الحماس في الأمة لدينها، والتفاعل مع عقيدتها، وإيجاد الترابط الاحساسي والشعور بالوحدة في الألم والأمل، والتحرك

المضحي بوجه الطواغيت والمبتزين والظالمين، وتذكيرها دائما بهدف الأنبياء جميعا، إذ يقول تعالى «ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت...» فلا تكفي عبادة الله لوحدها ما لم تصحبها عملية اجتناب وصراع ضد الطاغوت والاستكبار بشتى أنواعه.

نعم، إن علينا أن نزرع الفكر التغييري الإسلامي في النفوس، فذلك واجب كل مسلم. ويبقى بعد هذا أن نعمل مضمونيا على إيجاد الأجواء العامة المساعدة، ذلك أن الإنسان يتأثر بالبيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية تأثراً كبيرا، فطهارة البيئة شرط في تمامية عملية التربية. ومن هنا يهتم الإسلام بالإنسان قبل أن تنعقد نطفته وبعد انعقادها، وبعد ولادته إلى الموت، بل ويذكره بالكرامة التي يمنحها له ولكرامته ولجسده بعد الموت أيضا، ليوفر الجو الطبيعي لمسيرة إنسانية متوازنة نحو الأهداف المرسومة.

أما في جانب الوسائل:

فالمسلم يستفيد من كل ساحة لتبليغ ما شهده للغائبين، وما علمه للجاهلين ولا يمتنع إلا عن الأساليب التي لا يرضاها الإسلام والتي تمس بالكرامة الإنسانية. ومن هنا فنحن لن نتجاوز الإشارة هنا إلى بعض الأساليب والوسائل، ويبقى للداعية المسلم انتخاب الأنسب لتحقيق أهدافه العليا. ومن تلك الأساليب:

أ - القيام بعملية التثقيف من خلال المجامع، والمواسم، والمؤتمرات، ووسائل الإعلام، كالكتب والصحف والاستفادة من الفن؛ كالخط، والرسم، و الأفلام، والتمثيل وكذلك الاستفادة من فرص التجمع الإسلامية التي وفرها نظام العبادات كالجماعة والجمعة والحج والعيد كل

ذلك في إطار عملية منسجمة منسقة، واقعية، فيها تطوير في العرض، وتتم بصبر وبروح تضحوية عالية.

ب ـ تنفيذ خطة لإشاعة الأخلاق الإسلامية بشتى جوانبها من خلال توضيح الأهداف للجماهير والامتداد كأشعة الشمس في عروقها،وتقديم النماذج الأخلاقية المثلى وهداية الفرد والمجتمع إلى حيث تطبيق الخلق ورؤية النتائج بشكل حسي.

ج ـ العمل السياسي بكل شكل شرعي متاح، وذلك بغرض توفير البيئة الإسلامية المناسبة بعد قيام المجتمع على محور الإسلام، ونشترط في العمل السياسي الكثير من الشروط، ونذكر منها بكل اختصار ما يلي:

1 ـ أن يتم في الإطار الشرعي وعبر التخلق بالخلق الإسلامي الكريم.

2 ـ أن يتسم بالواقعية والعملية دون أن يغرق في أهداف خيالية.

3 ـ أن يراعي المصلحة الإسلامية العليا.

4 ـ أن يحقق نوعا من التوازن بين أمور كثيرة منها:

المركزية القيادية والمسؤولية الفرعية؛ المبدئية، والمرونة التطبيقية؛الأرباح والخسائر؛ (ويلاحظ هنا أحيانا أن الأرباح الكثيرة ربما وجب صرف النظر عنها إذا استلزمت الاعتداء على حق مهما كان قليلا، وللاضطرار ظروفه). التركيز الفكري والجماهيرية في العرض؛ التحرك الفكري، والعمل الجهادي الفاعل وغير ذلك.

5 ـ أن يتم العمل بشكل تغييري ولا أعني به أن يتم فقط في مجال تغيير محور المجتمع لا غير، وإنما اعني أن الإنسان المسلم حتى ولو قام بعمل

إصلاحي أخلاقي بسيط، فانه يقوم به في إطار عمل تغييري كبير لمحور الحياة الاجتماعية.

كل ذلك في مجال ملء الفراغ في فكرنا وشخصيتنا وعندئذ يمكننا أن ندخل في الحوار السليم مع الغير دونما أجواء ضاغطة أو ضبابية،وعندئذ يمكننا أن نبدي الوجه الحقيقي للتسامح والمداراة الإسلامية، والجنوح الصادق نحو السلام والتعامل الواقعي في سبيل خدمة المسيرة الإنسانية الصاعدة.

أما والوجود مهزوز ممزق، والجو صاخب مضبب، والتسلل بأنواعه يعيث في الأمة فسادا فانه لا يبقى مجال للتسامح والحوار.

وفي الختام، أسأل الله جل وعلا أن يوفق امتنا الإسلامية لاسترجاع خصائصها الأصيلة، والعودة إلى دورها الحضاري المراد لها كأمة شاهدة وأمة هي خير امة أخرجت للناس.